بين عشية وضحاها!

بقلم : عبد الرزاق العائشي

[... ان خير وسيلة لبلوغ الطمأنينة والهدوء هي الابتعاد عن نزوات الهوى ، وهذا أمر ليس أيسر ولا اقرب من ادراكه ...]

في عصر يوم من ايام الشتاء القارص ، بينما كان نبيل يحسو كؤوس الخمر مع نفر من اصدقائه في احدى الحانات ... احتدم عراك عنيف بين جماعة من رواد تلك الحانة ، فاودى بحياة بعضهم ... على اثر ذلك خطر لنبيل ان يبتعد عن هذه الحياة الصاخبة ... حياة اللهو والشراب التي لاقيمة للكرامة فيها ... فقال في نفسه : ان خير وسيلة لبلوغ الطمأنينة والهدوء هي الابتعاد عن نزوات الهوى ، وهذا امر ليس ايسر ولا اقرب من ادراكه ... وليكن اول همي ان ابتعد عن هوى النساء ، فاذا وقع بصري على غادة ذات حسن ودلال قلت لنفسي هذا الحسن عرض يزول : هذه الوجنات الموردة سوف تذوي ، هذه العيون الفاتنة سوف تذبل ، هذا الصدر الناهد سوف يضمر ، هذا الشعر المتماوج سوف يتساقط او يشيب ... وكل ما علي هو ان انظر اليها في الحاضر بعين المستقبل ، ولا شك ان عقلها الصغير سوف لا يتغلب على عقلي .

ولأكن زاهد النفس على الدوام ، فلا تخلبني مباهج الحياة ولا تغريني نفسي بالشراب الشهي والمجالس الصاخبة ... وما علي الا ان افكر بالأثر السيء الذي تجره هذه المآثم على الجسم والنفس ، من ثقل في الرأس ، ومرض في المعدة الى ضياع العقل والصحة والوقت ، فضلاً عن المال ... ولن اتناول من الطعام الا ما يقوم اودي ، فتظل صحتي سليمة قوية ، وافكاري ناضجة نقية ، وكل هذا سهل بسيط لا يصعب منالة .

قال نبيل : يجب ان افكر في حالتي المالية ... فاذا تجنبت كثيراً من الكماليات سوف تصبح حاجاتي يسيرة ، واموالي في حرز حريز ما دامت في المصرف . وان ما لدي من المال يكفيني مؤونة الناس اجمعين ان انا لم افرط به ، وان انس لا أنسى العطف على الضعفاء والمعوزين ، فيجب ان امد اليهم يد المساعدة حد امكاني ، وهذه سعادة ما بعدها سعادة ، وسوف لا اجري وراء مجد فان ، او مظهر زائل ، فلا احقد على احد ، ولا يحقد علي احد . وهذا مطلب يسير كذلك .

واستمر نبيل في خياله هذا فقال : ان لي اصدقاء اعزاء ولا ارى ما يدعوني الى مفارقتهم مادامو لا يضمرون لي شراً ، سوف لا امسهم بسوء ولا يمسونني بسوء . وهذا امر لا يكلفني مشقة .

وما كاد ينتهي من وضع سعادته في هذا البرنامج الصغير وهو مضطجع على فراشه ، حتى قام فاطل من زجاج النافذة فابصر على مسافة غير بعيدة فتاة في منتصف العقد الثالث من عمرها ، واقفة امام كوخ حقير ، متلفعة باسمال يستدل من زيها غير المناسب انها من امثال بنات الغوات ، تضم الى صدرها طفلاً دون الثالثة من سنيه ، يكسو بعض جسمه ثوب قصير خلق ، ومن شدة البرد آوى الى صدر امه يلتمس الدفء فيه ، فكان اشبه شيء بطائر ضعيف عصفت به ريح هوجاء فآوى الى جذع نخلة خاو يلتمس الراحة فيه .

وقفت خارج الكوخ على الرغم من حاجتها الماسة اليه في مثل تلك الساعة ... ساعة اخذ الطقس يشعر بزمهريره كل حي ... فكأن يدا خفية تزجيها عنه ، او وحياً الهمها ان الموت كامن فيه وهو فاتح ذراعيه شاهر منجل حصد الارواح لينتزع روحها ، ففزعت منه الى الخارج حائرة مضطربة ، تبدو منها حركات غير منسجمة ، فهي تارة

ترمق الافق بطرف كليل انحبست فيه الدموع انحباس قطر الندى في زهرة عراها الذبول . . . وتارة توزع نظراتها الشاردة على المارة وخاصة على اطفال جيرانها الذين اخذوا يهرعون الى مساكنهم وهم يرتجفون من شدة البرد مع وجود ملابسهم الواقية . . وتارة تحنو على طفلها الذي جمد على صدرها كما جمد الدم في عروقها ، فتتغير وجهه الشاحب اللون بقبلات يحار المرء في نعتها . . . أهي قبلات الام الحنون لما تستعيد الى طفلها المضطرب هدوءه وطمأنينة . . ؟ أم هي فيض من نبع الحياة يعلوا أديم وجهه الكالح فيسترد نضارته ورواءه . . ؟ أم هي حمم يتصاعد من بركان ثائر . . ؟

بهذه الحركات وامثالها كانت — جميلة — تعبر عن شعورها ادق تعبير ، في حين ازدحمت الكلمات في فيها ومن فرط الزحام تحطمت الحروف في مخارجها ، حتى تصاعدت شظاياها مع الزفرات تملأ الفضاء نغماً حزينا صامتاً ولكنه ذو وقع شديد على النفوس الحية الشاعرة . فكأنها — والحال هذه — تستدر عطف الكائنات بما فيها الشمس ، والليل ، والريح والزمهرير . بل وحتى القدر القاهر كأنها تستجديه الموت لما عزت عليه حياتها كأنسانة ذات شعور واحساس

استرعى مشهد الفتاة التفات نبيل ، واهتزت له مشاعره لا لحسنها وجمالها ، فهو على يقين بانه لم يكن بالغاً من ضعف الارادة هذا المبلغ ، لكنه رثى — على بعد — لشقوتها ويأسها . . وسرعان ما لبس معطفه وخرج اليها وفي خلده انه يزودها بحكمته ويسري عنها بنصائحه ، بعد ان يزودها بشيء من النقود — طبعاً — وما كاد يلتقي بها حتى اخذت تروي له مأساتها المؤلمة بلهجة صادقة تدمي القلب . . . اخذت تروى له كيف ان زوجها تركها — وابنها — وسافر الى جهة ما دون ان يترك لطفله شيئاً من مقومات سوى عطف امه وحنانها . . . بيد أنى لعطفها وحنانها ان يغذيا طفلها لما ينضب معين حياتها . . ؟

صح تقدير نبيل حين قدر انها من بنات الذوات ، فهي من أسرة كريمة معروفة ، اخنى عليها الدهر بصروفه ، حتى سلب جميع ما كانت تعتز به — ماديا — من تراث اسرتها ماخلا جمالها الروحي . . . ذلك الجمال الذي كثيراً ما سبى العقول وحير الالباب . . وهكذا استولى على شعور نبيل فصيره يندفع نحو الفتاة بكليته ويده في جيبه وبسرعة خاطفة يخرج من جيبه ورقة [بنكنوت] فيهتف بصوت مسموع : خذي . . . خذي هذه وقومي بها اودك وكانت الورقة من فئة يسيل لها لعاب بعض الاغنياء من الرجال ، فضلاً عن فتاة معدمة . . . إلا ان الفتاة التي ظنها نبيل — خطأ — ستخر له ساجدة شكراً على جميل صنيعه . . . لم تأبه بذلك ، وقابلته ببرود غير منتظر قائلة : شكراً لك يا [نبيل] لا حاجه بى الى النقود . . ! ارجعها الى مكانها وابتعد عني قبل ان يرانا احد ونحن على هذه الحالة فيرتاب فى امرنا .

بهت نبيل من قولها ، وارتد الى الوراء قليلا ثم قال : اذن . ! اسمحي لي بان اذهب الى السوق فاتيك بشيء من الطعام . فاجابته [وماء الحياء يتقاطر من محياها] : ليكن ذلك . ! ولكن على مقدار حاجتي الليلة ، لاني اتوقع مجيء زوجي غداً

ودعها نبيل — موقتاً — وراح يوسع خطاه الى السوق وكان على مسافة غير يسيرة ، وبينما هو سائر اذ سمع نشيج امرأة ينبعث من قلب مكلوم ، فراح يدافع خب الاستطلاع يتبين مصدره ، فرأى امرأتين جالستين تحت ظل شجرة من اشجار الرصيف الممتدة على طول الطريق ، فدنا منهما واذا احداهما عجوز صامتة المعالم كأنها لا تفكر في شيء على الاطلاق ، اما الثانية ففتاة صغيرة جميلة المحيا تبدو عليها مظاهر الفكر والقلق ، وما كاد يقترب منهما ويسأل لهما حالها حتى اخذت الصغرى تقص عليه مأساتها الشجية بلهجة عذبة صريحة تأخذ بمجامع القلوب . اخذت تقص عليه خبر عمها الذي « لاوجود له » كيف قسا عليها وكيف استولى بمكره ودهائه على تركة ابيها ، وكيف انه زوجها من كهل يكبرها كثيراً فى السن ، وكيف ان ذلك الكهل يسيء اليها دائماً لعدم انسجامها معه . وكيف . وكيف . حتى غدت ترتجف خوفا وفرقا من سطوة عمها وجبروته .

ثم قالت والدمع ينهمر من عينيها : انني استشف منك ذلك الرجل الطيب القلب ، الذي تحسن مشورته وتنفع نصيحته فلو تفضلت فرافقتني الى المنزل لتنظر بعض صوالحي ، فانك ولا شك ستنقذني ممن ورطتي وتنشلني من وهدتي . . ولا اظن عمتي هذه « واشارت بيدها الى العجوز » : تأبى ذلك . فهزت العجوز رأسها اجابة للاشارة ، فرافقها نبيل ولم يتردد ، وفي نيته ان ينظر في امرها بتعقل واخلاص ، ويبذل النصيحة الطيبة

صحبته الفتاة — وعمتها — الى دار حديثة الطراز ، فادخلته حجرة تتضوع ارجاؤها بالعطور ، مزودة باحدث وسائل الراحه ، واجلسته على اريكة وثيرة في ادب ولباقة ثم جلست اليه وجها لوجه ، وانبرت تتحدث اليه وعيناها الى الارض ، وكانت تنحدر على وجنتيها بين الفينة والفينة دمعة متألقة . فاذا ما ارتفعت تانك العينان التقتا بنظرات نبيل ، وكان صوتها يرتجف بالعواطف كلما التقت عيناها بعينيه ، فاخذ نبيلا شعور رقيق بعث في نفسه الرغبة الصادقة في ان يساعد هذه الفتاة الكريمة المنكودة الحظ فلما طال الحديث وارتفعت حرارته خرجت العجوز من عندها ، ثم تغير وضع الحديث شيئاً فشيئا فلم يعد احدهما يجلس امام الاخر ، وكان نبيل في هذه الفترة يقدم اليها تلك النصائح اللينة اللطيفة حتى تحول مجرى الحديث فلم يعد يدور حول الصوالح والنصائح . وافلت العنان من يد المتحادثين

عند هذه اللحظة طرق الباب طرقات متوالية فكاد يخر نبيل من وقعها مغشياً عليه والذي زاده فرقا قول الفتاة : الله . ! زوجي . ! زوجي حضر .!؟ فكاد يرتج الامر على نبيل لو لم تتداركه الفتاة ، [وبمهارة فائقة] اخرجته من الدار . ولكن بعد ان دفع الثمن غالياً .

وهكذا تغلب عقل المرأة — الصغير — على عقل الرجل — الجبار — اذ اوقعته في شرك ابرمت حباله من قبل قهرمانة مارست صيد القلوب وسلب الجيوب ردحا من الزمن فكانت تغري صيدها بضروب المكر والدهاء . . وماصمتها مع تشجيع للفتاة [المظلومة] حين اقبل نبيل الا من بعض مكرها ودهائها ، اذ تظاهرت بالصمم كي يحصر القادم حديثه واهتمامه بالفتاة فقط فكان لها ما ارادت على اكمل وجه .

عاد نبيل الى منزله يجر اذيال الخيبة والخجل ، وفي اثناء الطريق التقى باحد اصدقائه المخلصين وكان ذلك الصديق يبحث عنه منذ ساعات لكي يخبره بانه مدعو لتناول العشاء الليلة في دار صديقها زيد الذي اعتادا ان يجتمعا في داره مع زمرة من الاصدقاء متى شاؤا وبلا سابق ميعاد . فقال في نفسه : اذا بقيت الليلة في عقر داري فسوف تتراكم علي الهموم والافكار ، فتحرمني شهوة الطعام ، ومن ثم يدب الى جسمي السقم والانحلال ، فخير لي ان ألبي هذه الدعوة لعلي اجد في تناول الطعام مع هذه الرفقة السعيدة ملجأ يسري عن نفسي وينسيني تلك الغباوة التي وقعت فيها هذه الامسية .

قبل نبيل الدعوة ، وما ان استقر به المكان حتى ادرك اصدقاؤه انه يرزح تحت عبء ثقيل من الهموم ، فقدموا له بعض الشراب لعله يذهب عن نفسه بعض الاشجان ، ففكر قليلا ثم قال في نفسه : ان قليلا من الشراب يصلح الجسم وينعش الروح ، فتناول من بنت الحان ما ذهب برشده ، فلما انتهى هو واصدقاؤه من تناول الطعام والشراب دعوه الى لعب النرد ، فقال في نفسه ان اللعب مع هؤلاء الرفاق الأوفياء متعة شريفة فلعب حتى خسر ما معه من النقود ، ثم لعب ولعب حتى خسر اضعافها . وكان كلما خسر مبلغاً سحب صكا بمبلغ آخر . حتى اخذت الخمرة والانفعالات مأخذها ، فثار جدال حول اللعب ادى الى شجار عنيف وغضب ، فضربه احد اصدقائه [المخلصين] بصندوق النرد في جبهته فشجها

وعاد نبيل الى منزله مفلسا ، ثملا ، معصوب الرأس . وما كاد يصل الى فراشه حتى استسلم الى نوم عميق فلما افاق من رقاده ، وانجلت عن رأسه غيوم الخمر ارسل خادمه الى المصرف ومعه صكا بمبلغ ما . فعاد اليه الخادم يحمل نبأ افلاسه . . نبأ ضياع ثروته التي كانت في خزائن حريز والتي كانت تكفيه مؤونة الناس اجمعين . . وليت الأمر

وقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى اتعس من ذلك .

ذهب احد اصدقائه الى المصرف ومعه احد الصكوك ، فأبى المصرف ان يصرفه ، فلم يتوان ذلك الصديق عن اقامة الدعوى على نبيل ، وطالباً حجز امواله المنقولة وغير المنقولة وما كاد يشيع الخبر حتى اخذ الدائنون يتراكضون الى المحكمة يطلبون حجزاً على حجز

ذهب نبيل الى المحكمة ساخطاً متبرماً وفي يده شكاية لعله يجد لدى العدالة مخرجاً من هذا المأزق الذي وقع فيه تحت تأثير الخمرة . فلما دخل بهو المحكمة وجد جمعاً من الناس بين رجال ونساء ، وكان من بينهم سيدات ذوات حسن ودلال ، يرفلن بالحرير ، ويتخايلن بالفراء ، فنظرت اليه احداهن شزراً وكانت تعرفه بعض المعرفة ، ثم قالت : آه .. ما هذا المنظر . !؟ ونظرت اليه اخرى وكانت تعرفه اكثر من الاولى وقالت : نعمت صباحاً يا [نبيل] انني لسعيدة بانني اراك للمرة الثانية . . لماذا عصبت رأسك . . ؟ ومرت ولم تنتظر الجواب ، فلم يسعه الا ان يأوي الى ركن يختفي به حتى تحين اللحظة التي يتقدم فيها الى المحقق العدلي ويرتمي عند قدميه ، وبينما هو ينتظر على احر من الجمر ، إذ دعاه شخص ذو هيبة ، يرتدي بزة عسكرية ، يضع على عينيه نظارة سوداء وانتحى به جانبا وبعد ان اطلع على مضمون شكايته قال له بتلك اللهجة التي علتها الزهو والغضب يالك من رجل احمق . . ! كيف تجرؤ على رفع هذه الشكوى . . الم تعلم ان لي يداً في الامر . . ؟ انصحك ان تعدل عن هذه الشكاية ان شئت ان تبقى على حياتك

وهكذا عاد نبيل الذي كان قد اجمع امره في المساء على ان يبتعد عن النساء ، ويزهد في مباهج الحياة ، ويتجنب خصومات الافراد ، وقد وقع في حبائل غادة حسناء فتحدت كرامته بعد ان سلبت نقوده ، وعاقر الخمر ، وقامر ، وشاجر وتقدم الى المحكمة ، ودست كرامته في كنف العدالة تحت اقدام محتال مجهول ، كل ذلك بفعل ام الكبائر ، بين عشية وضحاها . . . اما تلك المسكينة التي اقر في نفسه [إن ينس لا ينسى العطف عليها وامثالها من المعوزين فسرعان ما انمحت صورتها من مخيلته .

البصرة — عبد الرزاق العائش

[بقية مقال آلهة مجرمون]

الجيل عندما يزج في صفحته القاتمة مأساة القرن العشرين فيمليها على المتخلف من الاجيال بقوله :

[في طليعة ذلك الفجر الاسود من غرة ايلول سنة الف وتسعمئة وتسع وثلاثين ، انتفض الطاغية فارتجت الآفاق وتجلجلت شفتاه فدوت العاصفة ، وتصايحت الاعاصير ، ثم اندلع الجحيم ، وتفجرت براكينها حمماً وشظايا ، من هنا وهناك حتى راح يتخبط فيها الكون كأنه كبش الزكاة تقدمه الى النار احلام نهمة رقطاء ، تصفر في مثل فحيح الثعابين ، واطاع فاجرة تدب ساعية دبيب عقارب المستنقع فلا تنفك تقذف بهؤلاء الملايين من الضحايا في اشداق تلك الجحيم ، حيث تتمثل المأساة في الملحمة العظمى على مشهد من السماء والارض والتأريخ]

— افهكذا ياسماء يستمر معاشر اهل الارض في صراع وحشي يتنادون اليه ويتهالكون فيه ، في صراع هو الجريمة تتسربل وتتحامى متنكرة في رداء القانون ، حتى ينشط في خدمتها الفن والعلم ، متفانيين لحشد قوى الطبيعة ، ووضعها في تصرف سلطان الموت ... ؟

— فاين اذن انت يا سماء من المجزرة ، وإلام تتصامين ، وعلام تتعامين ؟

— ثم اي ايمان هو ايمانك ، واية رحمة هي رحمتك ، واي عدل هو عدلك ، واي سلام هو سلامك ؟

— ثم اين انتم ايها الرسل والانبياء ، واين ما اقتمتموه في الارض من النواميس ، واذعتموه في الناس من المبادىء وعلمتموه في سبيل المحبة والعدل والسلام ؟

— ثم اين انتم ايها الشراع والفقهاء ، واين شرائعكم تقيم الحدود ، وتنشر العدل وتنهى عن المنكر ، وتردع عن الشر وتصون الحرمات وتوفر الامن ؟

— ثم اين انتم ايها المفكرون والحكماء ، واين تعاليمكم

[البقية على الصفحة ٩٦]